عناصر الاستقلال . . !

[مهداة إلى شباب العرب]

(لأستاذ فاضل)

ليست هناك فكرة جلية لدى الأمة وفريق من خاصتها ، عن الاستقلال الحقيق ؛ بل إنهم يفهمون من — الاستقلال — الاستقلال السياسى فحسب ! وقليلون أولئك الذين يفهمون الاستقلال على حقيقته ، والعلة فى ذلك قلة ما صدر حتى اليوم من الكتب التى تعالج القضية الوطنية ، على أنها محدودة الشمول ، أو سطحية الخ .

والاستقلال بمفهومه العام يقوم على أركان ثلاثة أساسية ، وفقدان أحدها يُعدّ ثلماً فى الاستقلال ، إذ يؤثر على الآخرين . وإذا كنا لا نفيد كثيراً من المفاضلة بينها إلا أنه يهمنا أن نقرر أن كلا من هذه الأركان خطير الأهمية .

وبعد ، فما هى عناصر الاستقلال وأركانه التى يقوم عليها ؟ هذه الأركان ثلاثة هى :

الاستقلال السياسى .

الاستقلال الاقتصادى .

الاستقلال الفكرى .

ولا يعزب عن البال أن العرب حتى اليوم لم يعيروا الركنين الأخيرين ما يستأهلانه من العناية والاهتمام . ولعلّ مرد ذلك إلى أن الأجنبى هو الذى حال دون ذلك حتى اليوم .

كذلك لا يعزب عن البال ما للركن الثالث من أهمية (خاصة) لأن علاقتنا مع (أجنبى) جنى (ويجنى) فوائد عظيمة من ثلم الاستقلال الفكرى ، بل هذا هو سلاحه الفتّاك ، أعنى « الدعاية » بمفهومها الواسع التى توفر عليه إراقة الدماء ومرّ العناء ، مما لم يُثبت أجنبى غيره قدرته على الاستفادة من هذا السلاح ...

ولما أصبح مفهوم الاستقلال السياسى وقضية الحرية من البدائه التى لا يختلف فيها اثنان فسوف نقصر كلامنا على الركنين الأخيرين ، إجمالا .

أولا : ما هو الاستقلال الاقتصادى وأهميته وأثره ؟

هو أن يكون للبلد زراعة ثم صناعة ثم تجارة مزدهرة ، بحيث يكون ميزانه التجارى وميزانه الحسابى سليمين ، فلا يعتمد فى شىء من حاجاته على بلد أجنبى ما لم ينتج ما يسدّ النقص . وعلى ضوء هذا التعريف البسيط الموجز نتساءل هل نحن مستقلون اقتصادياً ؟؟ الحق أننا لم نجتز بعد الخطوة الأولى فى مضمار التقدم الاقتصادى ، ومازال مستعبدين اقتصادياً ، فكثير من المشاريع المنتجة العظيمة فى بلاد العرب ، تُستغلّ برؤوس أموال أجنبية ولا يصيبنا منها إلا نصيب الأيتام على مأدبة اللئام !

ولم تغب بعد من الأذهان والخواطر تلك الحالة الاقتصادية البائسة التى فرضت علينا طيلة الحرب العالمية الثانية ، وما تزال ، حيث تمكن الأجنبى من تحطيم كيان العرب الاقتصادى بين عشية وضحاها ، فأحصى علينا حركاتنا وسكناتنا ، ووقمنا تحت رحمته أسارى ، وازدهرت الأندية واللاهى والخلاعة ... وسهل عليه أن يستعمل جيشاً لجباً من رجالنا ... كمرتزقة ... !! الخ ... الخ ... الخ ...

(وأبقى لنا جلداً رقيقاً وأعظما) أورثنا الطبلاوى افندى[1] هذا الحيوان الذى أتخيله وحشاً يخرّب ويدمر ... ويبتلع الأخضر واليابس ... وأورثنا التضخم النقدى ... وسرق الرغيف منا سراً وعلانية ، وابتلع نتاج أرضنا من بترول ومعدن ... وذهبت الدماء التى أُريقت منا هباء منثوراً ... ولكن عادت تلك الظروف علينا نحن والهنود وغيرهم ... ندفع الثمن !!!

إذن ما نزال تحت رحمته ، ولم نخط خطوات محسوسة فى سبيل الاستقلال الاقتصادى ، وهذا يعنى — وهو حقيقة مرة — أن الوضع الحاضر المقيت سيمتد إلى أجل غير مسمى فى بلاد العرب ... وسيبقى الاستقلال السياسى — إذا أتممناه — عديم الفائدة .

ثانياً : ما هو الاستقلال الفكرى وأهميته ؟؟

هو ألا نجرى وراء الآخرين بل نجاريهم فى كل شىء !

هو ألا نصدق بكل ما يرد إلى بلادنا من أفكار ومذاهب وآراء على علاّتها .

هو ألا نشعر بأننا قاصرون ، وأقل جدارة ، وأحط أهلية

---

(١) ثرى الحرب كما ينعته الأستاذ الكبير الزيات.